

التراث الثقافي غير المادي: المفهوم

د. رياض حمودة ياسين*



الفنون
الشعبية

للتربية والعلوم والثقافة خلال إطلاقها اتفاقية خاصة للمحافظة على هذا التراث سنة ٢٠٠٣.

وقد اعتمد المؤتمر العام لليونسكو في ١٧ تشرين الاول ٢٠٠٣ اتفاقية صون التراث الثقافي غير المادي، التي دخلت حيز النفاذ في ٢٠ نيسان ٢٠٠٦. وقد صادقت الأردن على هذه الاتفاقية بتاريخ ٢٤-٣-٢٠٠٦.

وتمحورت أهداف الاتفاقية حول صون التراث الثقافي غير المادي واحترام التراث الثقافي غير المادي واحترام الجماعات والمجموعات والأفراد، والتوعية على الصعيد المحلي والوطني والدولي بأهمية هذا التراث والتقدير المتبادل له.

ويشمل الإطار العام للتراث الثقافي غير المادي على الممارسات والتصورات وأشكال التعبير والمعارف والمهارات وما يرتبط بها

الحديث عن التراث يتركز عند الدارسين على التراث المكتوب الذي غالباً ورث عن الصفوة المثقفة. أمّا

الكنوز المعرفية الشعبية، لاسيما الشفهية منها التي تشكل السلوك وتوجه الفكر في المجتمعات، فهي قليلة الحظ من الاهتمام، ويعود ذلك إلى أنّ هذا التراث هو حي متناقل بين الجماعات والأفراد يتغير ويتطور حسب المعطيات الموضوعية التاريخية.

يمثل التراث الشفوي ذاكرة حية متناقلة، إطارها الأوسع ما يسمى التراث الثقافي غير المادي (Intangible Cultural Heritage) حسب التعبير الذي تبنته منظمة اليونسكو، منظمة الأمم المتحدة

* باحث أكاديمي أردني

٨ (Intangible Heritage Messenger, n 10, Intangible Heritage Section, (UNESCO, 2008)



من آلات وقطع ومصنوعات وأماكن ثقافية... تعتبرها الجماعات وأحياناً الأفراد جزءاً من تراثهم الثقافي المتوارث. وهو ينمي لدى هذه الجماعات الإحساس بهويتها والشعور باستمراريتها ويعزز من احترام التنوع الثقافي والقدرة الإبداعية البشرية.

لقد بات العالم، مع الانفتاح الهائل، يأخذ سمة زوال الحدود والحواجز، فكانت هناك تخوفات مشروعة من اندثار هذا النوع من التراث الذي لا يمكن أن يكون موثقاً تماماً، وبالنهاية هو جزء من هذه الثقافة التي تعبر عن هوية المجتمعات وتشكل ذاكرة للأمم وعنوان وجودها، وأكثر من ذلك فهو جزء لا يتجزأ من التراث الثقافي للإنسانية^٢، ومن هنا كان الاتجاه الأممي نحو المحافظة على هذا التراث من الضياع، وأكثر من ذلك صونه بالطرق المناسبة باستخدام الوسائل المتطورة^٣ وقد التفتت منظمة اليونسكو في مؤتمرها العام نهاية ٢٠٠٣م إلى أهمية التركيز على حماية التراث الثقافي غير المادي ولهذا الغرض أطلقت جائزة لروائع التراث الشفوي غير الملموس بعد أن تبين أن هناك نقصاً في الاهتمام بهذا النوع من التراث في المجتمعات التقليدية، ووفق المبررات التي ساقتها المنظمة الدولية فإن هناك حاجة ملحة للحفاظ على هذا التراث المهم في ظل مخاطر الضياع والاندثار، وقد بات هذا التراث بأمس الحاجة إلى الالتفات إليه كونه يمثل ملكاً مشتركاً للإنسانية وخسارته أو فقدانه تعني خسارة لكل الإنسانية؛ ذلك أنه يمثل خصوصية الأمم والمجتمعات، وهو بالحصلة مستودع للذاكرة الإنسانية برممتها، فضلاً عن أنه يمثل عنصر التواصل بين الأفراد في ما بينهم وبين الجماعات ذات السمات والخصائص المشتركة^٤ وعندها يمكن الحديث عن ثقافات عالمية يكون فيها لكل أمة ثقافتها وهويتها المتميزة. وبقدر ما يكون هذا الحراك

حاضراً في هذه الثقافة تكون مؤثرة في الثقافات العالمية ضمن اشتراطات موضوعية وتاريخية. لا ينحصر التراث الشفوي فيما يختزنه الناس حفظاً فيكون بالأدب المحكي على الشفاه حسب، فقد يكون مكتوباً ومدوناً. لكنه يكون ثقافة الجماعة البشرية وهويتها، وأداته هي اللغة وما يرتبط بها من أصوات وأحياناً إيماءات وتعبيرات جسدية ونفسية.

ويمكن تمييز التراث الشفوي عن باقي التراث غير المادي كون أداته هي اللغة، فالتراث غير المادي ليس كله شفويًا، فهناك فنون متنوعة تتعلق بمأثورات شعبية مارسها الأجداد واستمرت ولكن بصيغ وتفاصيل أخرى مرتبطة بتفاصيل حياتنا، مثل الحلي وأدوات الزينة والجواهر والملابس والعطور والطيب والهدايا والطبخ والحلوى وآداب المائدة

٢ نبيل جورج سلامة، التراث الشفوي في الشرق الأدنى ومنهجية حمايته، ص ٣٥.

٣ (Intangible Cultural Heritage Convention, p2, www.UNESCO.org)

٤ أحمد علي مرسي، الادب الشعبي والعادات والتقاليد، مجلة المأثورات الشعبية، ص ٧٢.
٥ راجع: توصيات لجنة الخبراء الحكوميين المختصة بصيانة الفولكلور، منظمة اليونسكو، باريس، ٢٢-٢٦/٢/١٩٨٢.



والمراثي والتعازي وطقوسها وأدب الزيارة والعشق والعشاق وأخبار النساء والشعبذة وفنون الشطرنج والمعتقدات والمعارف والحرف التقليدية وغيرها، فهذه الفنون لاتدخل ضمن التراث الشفوي ولكنها تتضمن الحاجة إلى الكلام في ممارستنا لها، الأمر الذي يعني أنّ هناك تداخلاً لا يمكن تجاهله بين الفنون غير المادية وبين الثقافة المحكيّة الشفويّة التي تمّ تناولها عبر الأجيال التاريخية. وربما يتماثل ما نعرفه بالتراث الشعبي مع فكرة التراث الثقافي غير المادي. ويمكن القول إنّ دراسة

على غموض أو على مستوى يحتاج إلى أدوات معرفيّة وعلميّة لاتتوافر إلا لقلّة من الناس. وقد يكون غير شعبي بمعنى أنّه ليس مجهول المؤلف، ولكنه يمثل تراثاً شفويّاً، وهذا يدخلنا في إشكالية أخرى تتعلق بسؤال شيوع هذا التراث وقدرة كلّ الناس على تناقله وسهولة تداوله، ويدخلنا في سؤال آخر له علاقة بالحدود غير الواضحة بين الأدبين الشفوي والكتابي، ويدفعنا إلى سؤال آخر يتّصل بالعلاقة بين العامي والفصيح، بمعنى أنّ تتبّع حركة التفاعل بين هذين البعدين يبدو صعباً في الإطار التاريخي.

وإذا كان الموروث الذي عدناه شفويّاً تمّ تناقله بين الأجيال تاريخياً، فماذا عن الثقافة الشفويّة الناشئة بفعل ظروف راهنة، أي ليس لها ارتباط بالموروث وكانت ناتجة عن التأثير بثقافة أخرى أو كانت نتاجاً لمستجدّات وظروف موضوعيّة فرضتها خصوصية الجماعة ضمن ظروف معيّنة في الوقت الراهن؛ فنحن هنا أقرب إلى الاعتراف بأنّ الثقافة الشفويّة أكثر شمولاً من تعبير التراث الشفويّ الذي يعني ما تمّ تناقله من جيل سابق فقط. وهذا يعمّق الإشكاليّة مرّة أخرى لأنّه سيصبح من الصعب تتبع أصول المفردات الحياتية في أصولها واشتقاقاتها.

الأدب الشعبي تفيد في التعرف على نماذج التراث الشفوي، فالتراث الشفوي هو جزء من الأدب الشعبي الذي يشمل أيضاً عناصر كثيرة منها السير الشعبية والتعابير، والأقوال السائرة، والكنايات والألغاز، والمعاضلات والحكايات والأساطير والخرافات، والأمثال والشعر والأحاجي، والنداءات والنكات والفكاهات ونحو ذلك.^٦

لكنّ هناك إشكالات داخل التراث الشفوي المحكي نفسه، فهذا الأدب المرتبط بأمة ما أو جماعة بشرية، يصعب تصنيفه وفق عناصر معينة لأنّه يشمل كل ما يتناقله الإنسان شفاهاً دون تحديد نوع هذا الأدب أو الخطاب. وأكثر من ذلك أنّه لا يتّخذ لغة واحدة بمعنى أنّه قد يكون محكيّاً باللهجة المحلية أو شبه الفصيحة^٧، وقد يشمل ما هو محفوظ منه بالفصحى، وتبقى السمة الغالبة على الأدب الشعبي أنّه مجهول المؤلف عامي اللغة يتمّ توارثه جيلاً بعد جيل بالرواية الشفوية^٨، وهذا معناه أنّ هناك تراثاً غير شعبي قد يكتنز صفات مغايرة كأن يكون فصيحاً أو متداولاً بين فئات محدودة لأنّه قد يشتمل

٦ هاني العمدة، الادب الشعبي في الاردن، ص ١٥

٧ مجلة التراث الشعبي العراقية، عدد ٦، ص ١٨٢

٨ المرزوقي، الادب الشعبي في تونس، ص ٤٩